إعلامية السينما في الزمن المتغير

بقلم: أ. رحو قادة

جامعة الجيلالي يابس سيدي بلعباس

يقول هنري أجيل : إن السينما هي الفن الشامل الذي تتجه إليه كل الفنون الأخرى[1] . لكون السينما في عصر انتشار الوسائط الجماهيرية(التلفزيون ، الفيديو ، الأنترنت)

استردت مكانتها و هيمنتها على المتلقي، لأن كل ماهو مكتوب أو منطوق عاجلا أم آجلا سينتهي إلى صورة. بزحزحة إستباقياتهما وريادتهما (المكتوب و المنطوق) لأن الدلالات الأدبية تكتب ولا ترى، أما الصورة تقرأ وجدانيا ، فلذلك أصبحت تشغل مساحة كبيرة عند الناس، وتؤثر في سلوكياتهمومفاهمهم بل وتؤثر في قناعتهم وتحدث انقلابا في بناهم التفكيرية ، وهنا تكمل خطورة الصورة في صناعة الوهم و التوهيم ، الذي يؤدي إلى تزييف الحقيقة أحيانا و تمييعها أحيانا أخرى .

وهنا السؤال يطرح نفسه هل للسنيما دور إعلامي ؟ و إذا كانت كذلك فما هي اهتماماتها التبليغية ؟ و من هو جمهورها المستهدف ؟

ـ في بلد كالجزائر يخرج لتوه من استعمار طويل جاء على الأخضر و اليابس في بناه التحتية و الفوقية على السواء ، فكان حري بالقائمين على سياسة البلاد اتخاذ السينما بعدما أصبحت بضاعة استهلاكية كوسيلة لإعلام الجماهير بمجريات الحياة السياسية والاقتصاديةوالاجتماعية لمشاريع تنماوية لها علاقة بالمواطن الجزائري لرفده من تخلفه الموروث . و كذا لتدعيم الروح الوطنية ، وجمع اللحمة بين أبناء الشعب لتأكيد الشعور القومي لديه بكل أبعاده العربية و الإسلامية و الإفريقية .

فاكتست السينما الجزائرية بشقيها الروائي والتسجيلي

و في خطابها الإديولوجي بالرداء الاشتراكي .

وهنا وجد السينمائي الجزائري نفسه ليس ثائرا على الاستعمار و فقط ، و إنما يمتلك الثورة و الرفض و التمرد على كل ما في الواقع الاجتماعي و الثقافي والسياسي من تخلف ومعوقات فتبنى مفهوم التغيير الثوري، باعتبار الثورة في جوهرها تغييرا جذريا وعنيفا للمجتمع.

فتحملت السينما الجزائرية وزر هذا التحول ، فأصبحت سلاحا في يد السينمائي الملتزم سياسيا لأنها أحسن وسيلة لمحو أثار وبقايا الاستعمار . وكذلك بالوقوف ضد السينما الوافدة من عدو الأمس (الاستعمار والإمبريالية) والتي أخذت تبث إديولوجياتها المزيفة، ومختلف الأفكار المسمومة التي ساهمت في تطويل أمد السيطرة الفكرية الاستعمارية وفي " تأخير الوعي و التي دفعت بأبناء المدن والأرياف على السواء ... إلى التماثل مع الإنسان الغربي الذي قدمته السينما الغربية كنموذج "[2]

مما حدا بالسينما العربية على العموم والسينما المصرية

على الخصوص في السقوط في مستنقع التغريب فكانت تنتج الأفلام التي تعرض شخصيات درامية معبرة عن مختلف " درجات تغريب المجتمع المصري ، الشباب يذهب إلى الجامعات و يلبس لباسا غربيا ويرقص على نغمات الموضة الأوربية والأمريكية غراميات... مواعدة ... و معها الأفلام الغنائية لعبد الحليم

حافظ... سعاد حسني ... فريد الأطرش الخ . فهي أفلام لا مواضع اجتماعية و لا مضامين و لا رسائل تبلغها ، بل تتعرض لوضعيات التغريب والمعاصرة "[3]

فانبرت السينما الجزائرية ترد على النيران العدوة كما ترد على النيران الصديقة ، ونصبت نفسها على أنها سينما ثورية و سينما النضال ، يرجى بواسطتها تغيير الواقع المعيشي والرنو بالمواطن الجزائري الى الوعي والنضج لتأهيله و تحصينه بواسطة الخطاب البصري من هذا الغزو المبرمج .

لأن الخطاب البصري أبلغ تأثيرا من بقية الخطابات الأخرى في مجتمع شفهي تراجعت فيه ثقافة الكتابة والقراءة لكون الأمية ضاربة في أوصاله حتى النخاع هذا من جهة ومن جهةأخرى نجد الصورة

تخاطب الجماهير بكل تركيبتها أما الكتابة فتتجه للفرد ... " فالثقافة السينيمائية (الصورة) ..هي ثقافة انقلابية بحد ذاتها.. لها أثرها على العقل البشري ولها القدرة في زعزعة الأشكال التعبيرية الجامدة "[4]

وخدمة لمشروعية السلطة السياسية والشرعية الثورية . " تجاهلت السينما الجزائرية بشيء يدعو الى الدهشة ، المواضيع ذات المضمون التراثي و الفكري ، رغم أن الموضوع كان مرشحا تاريخيا و ثقافيا أن يكون المجال الثاني ... بعد المجال النضالي المعبر عن حرب التحرير . "[5]

وهذا ما جعل السينمائي الجزائري أو الفاعل الإعلامي يتبنى صفة المثقف العضوي على رأي أنتونيوجرامشي ... يحمل هما وغدت سينما المؤلف . " و سينما المؤلف هي ذاك النمط الخاص من الإبداع السينمائي الذي ينتمي كليا إلى المؤلف المخرج منذ لحظة تكونه كفكرة إلى حالة وصوله إلى المشاهد... كنص إبداعي بصري على الشاشة ."[6]

فكانت الكاميرا تتوجه للأفعال و الأقوال لتوجه (جيم مشددة مكسورة) ، و تعترض على كل الأعمال التي تراها تنطوي على نزعة تشاؤمية أو لها مواقف سلبية تجاه خياراته الإيديولوجية ، فكانت السينما الجزائرية ذات حمولة دعائية تجمع بين فيلم الرسالة الذي يقدم جرعة إعلامية ,تتمثل في أفلام تسجيلية ، وروائية قريبة من التسجيلية عن تاريخ النضال الجزائري إبان الحقبة الاستعمارية .لجمهور معلوم ليصنع له ..رأي عام .كان دائما أو مؤقتا و ذلك ما تنطوي عليه الرسالة الإعلامية من ترويج لمفاهيم سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية تساهم كلها في بلورة رأي المتلقي الموجه (بفتح الجيم) .

وفيلم الفائدة المسلية أو الفرجة الدسمة المتمثلة في درنمة الضحك و السخرية من القديم والماضي متمثل في عادات و تقاليد بالية اركيبكيةArchaique ، كان يراها الفاعلون السينمائيون أنها لاتخدم التنمية المرجوة و لا الطرح الإيديولوجي الجديد لخلق المجتمع الاشتراكي المأمول . فيجب التنبيه إليها و تحريض المتلقي لتركها و تجاوزها كونها تنتمي لماض متحفي متخلف ، و هذا ما نراه في مضامين أفلام المفتش الطاهر و أفلام حسن الحسني (بوبقرة) وأفلام حسن طكسي و حسن نية وطكسي المخفي لعمر بختي ... وكرنفال في دشرة ... الخ .

فكأن هذه الأفلام تقدم خدمة عمومية ببعدها البيداغوجي و الاجتماعي و حتى الشعبي ...لتعبئة الجماهير في المشروع القومي المنشود.

لكن في الزمن المتغير و انهيار الأنظمة الشمولية وتراجع دور دولة الوصاية،و تزحزح المرجعيات التقليدية التي كانت تعتمد في التسويغ الإيديولوجي و أمام الانفتاح الديمقراطي و ميلاد المجتمع الحديث الذي يؤمن بلا المركزية ، وتنوع مصادر الاتصال و التواصل و دمقرطتها على الجميع دون رقيب أومانع ،وكما لم يعد يتلقاها المتلقي العادي بشكل تلصصي(لايخاف الرقابة العامة ولاالرقابة الذاتية)

وفي خضم متغيرات ثقافة المجتمع ببعديها الواقعي و المعياري و ظهور اتجاهين للسينما هما : " سينما الفرجة والاستراحة cinéma détente، و سينما الثقافة cinema culture فأضحى المتلقي (المشاهد) لا يذهب أبدا الى السينما وإنما يذهب ليشاهد فلما كما يقول jean boniface : ... on ne va plus ou cinéma , on va voir un film »[7]

حيث قفز عالمنا " من الفردية إلى العولمة من الزعامة التاريخية إلى عهد المؤسسات المستقلة ... تكاد تمتدإلى حد تحطيم مفهوم الدولة القطرية "[8]

فتوخينا في هذا الزمن المتغير من السينما أن تنتج لنا ثقافة المعنى ، بإثارة النقد و نقل الأفكار ونشر الوعي والقناعات للارتقاء بالجمهور ولا تفهم السينما كمتعة للمشاهدة وفقط.

فقد أصبح للمتلقي المشاهد في يده أو أمامه خياران أن يكون له صوتان يصوت بهما امام صندوق الاقتراع للسنيما لأن السينما أصبح لها مرشحان إما يعطي صوته للسنيما الاتباعية (سينما الفرجة) التي تدعو إلى السير فيما هو مألوف و معهود و التي تطرحها المدقوقات الشعبية في وجدان الأمة و نخبها .. (الموالف خير من التالف) أو (الجمهور عاوز كده).أو يمنح صوته لسينما الإبداع التي تحرض على مساءلة الواقع وتشخيصه و نقده لتحديث الحياة الوجدانية و السلوكية و العقلية للناس و ذلك بتوظيف المعرفة المأمولة في جميع نشاطاتهم لزحزحة ثقافة الخرافة والاستكانة للعجز و الوهم الذي ورثته (بتشديد الراء و فتحها) تراكمات تاريخية معينة.

الهوامش :

1- هونري أجيل ، علم جمال السينما ، تر ، إبـراهيم العريس ، دار الطليعة بيروت 1980 ، ص 7.

2- إبراهيم العريس ، الصورة و الواقع ، بيروت ، ط 1 ، يوليو 1878 ص 31.

3- مومن السميحي ، في السينما العربـية ، طنجة ، أكتوبـر 2009 ، ص 32 و ص 33.

4- إبراهيم الكيلاني ، العالم السينمائي ، دار اليقظة ، دمشـق 1960 ص 58.

5- مجلة " السينما " ، ع ١ جويلية أوت 2000 ، محطات منسية من السينما الجزائرية بقلم رقيق علاء الدين ص 26.

6- بشار إبراهيم ، رؤى و مواقـف في السـينما السـورية ، ط ١ دمشـق 1997 ، ص 159.

7- Arts de masse et grand public , paris 1961 , p 88 .jean boniface

8- مجلة" العربي" عدد 491 ، أكتوبر 1999 ، عالم الصورة و ثقافة العين بقلم أحمد يوسف ص 39